الوَضْعِيَّة المَنْطِقيَّة والمِثاليَّة النَّقْدِيَّة ومَفْهُوم الإنْسَان

إيردل جنكنز*

مُقدّمة

يهتـمُّ بحثنـا ذلـك فـي عمومـه، بالانقسـام الفلسـفيّ بيـن مـن يؤكّـدون صلاحيَّـة الميتافيزيقـا ومـن ينكرونهـا. ومـن الضَّـروريّ إذا أردنـا تعاونًـا بنّـاءً في الفلسـفة أنْ نُصالح بيـن هذيـن الطَّرفيـن. سـنضع تلـك الغايـة نصـب أَعْيُننـا فـي بحثنـا الَّـذي سـنناقش فيـه على نحـوٍ خـاصٍّ الحركـة الفكريَّـة المعاصـرة الَّتِي تُجاهِـرُ فـي مُعَاداتِهـا للميتافيزيقـا، وتُصـرّح برفضِهـا للعمـل العقلـيّ.

المدارس الفكريَّة المُعادية للميتافيزيقا

فـي الحقيقـة تلـك الحركـة ليسـت مُوحّـدة، فهي تضـمُّ مجموعـةً مُتنوّعةً مـن المدارس الَّتِي تختلـفُ في كثيـر مـن النّقـاط، وبسـبب ذلـك الاختـلاف والتنـوُّع لـن نخـوض فـي تعريفهـا؛ لأنّ أيّ تعريـف لهـا عـن طريـق الجمـع والمنـع سـيكون صعبًـا وهشًّـا، لكـن وضوحهـا فـي الأفـق الفلسـفيّ يجعلهـا غنيَّـة عـن التَّعريـف.

* IREDELL JENKINS Logical Positivism, Critical Idealism, and the Concept of Man, Journal of Philosophy,vol,47,No 24 .pp677-695.http://www.jstor.org/stable/2021020 تعريـب طـارق عسـيلي.

يمكـن القـول: إنَّ مجـال الحركـة المُعَادِيَـة للميتافيزيقـا يتـراوح بيـن مادِّيَّـة أوتـو نويـراث Otto Neurath، وخياليَّـة هانـز فيهاينغـر ans Vaihinger. وعلـى الرّغـم مـن اتِّسـاع المجـال، وتعـدُّد التيَّـارات والاتِّجاهـات، فقـد اتّفَـق الـرأي علـى أنّ التيَّاريـن المُهَيمِنَيـن فـي الحركـة همـا: المثاليَّـة النَّقديَّة critieal idealism كما جسّـدها أرنسـت كسـيرر Ernst Cassirer، والوضعيَّـة المنطقيَّـة logical positivism، أو (التجريبيَّـة المنطقيَّـة) الَّتِي صـدرت مـن دائـرة فيينـا.

تتميّـز تلـك الحركـة بالإصـرار علـى ضـرورة تطهير حقـل الفلسـفة، وتحديـد وظيفتها، وإعـادة تقويمهمـا جذريًّـا، مـن خـلال التَّركيـز علـى معالجـة مشـاكل المنهـج العلميّ والتّحليـل الدلاليّ، ومـن خـلال حصـر البحث التّجْريبـيّ بالفرضيّـات الَّتِي تُشِـير، بطريقةٍ مباشـرة، أو غيـر مباشـرة، إلـى المحتـوى الحسّيّ البدهيّ الَّـذِي يُتـاحُ عبـر التجربـة، ومـن خـلال القيـود الصّارمـة الَّتِي تفرضهـا علـى البحـث، والنّقَـاش الهـادف.

باختصـار تتحـدَّد روح الحركـة مـن خـلال إنكارهـا إمـكان وصـول المعرفـة إلـى المسـائل الميتافيزيقيَّـة والمعياريَّـة الَّتِي طالمـا كانـت تُشَـكّل اهتمامًـا خاصًّـا للفلسـفة. ليـس مـن الضّـروريّ تأكيـد الإسـهامات الَّتِي قدّمهـا الأفـراد والمـدارس المختلفـة الَّتِي تتشـكّل منهـا تلـك الحركـة، فعملهـم مشـهود لـه، ومعتـرف بـه.

مـا يهمّنـا مباشـرة هـو الصّـراع والإربـاك الَّـذِي نشـأ مـن خـلال فـرض الوضعيِّيـن المنطقيِّيـن والمثاليِّيـن التحليليِّيـن بعـض القيـود علـى الفكـر الفلسـفيّ. وذلـك من خلال تأكيدهـم أنّ كثيـرًا مـن المشـاكل الَّتِي تظهـر فـي حيـاة الإنسـان هـي مشـاكل زائفـة، وغيـر قابلـة للحـل، وأنّ عـددًا كبيـرًا مـن القضايـا الَّتِي تبـدو للإنسـان فائقـة الأهمِّيَّـة هـي فـي الحقيقـة فاقـدة للمعنـى. وذلـك مـا أدّى إلـى إنـكار المشـاكل، وإهمـال التحقيـق فيهـا، ونقـل العالـم الَّـذِي يعرفـه الإنسـان مـن مسـتوى الوضـوح إلـى مسـتوى الإبهـام.

الادّعـاءُ المركـزيُّ فـي ذلـك البحـث أنّ تلـك القيـود الصّارمـة المفروضـة علـى مجـالات البحـث ليسـت اختباريَّـة، وغيـر علميَّـة. وتأييـدًا لذلـك المُدّعـى، سـأوضح أولًا أنّ الإجـراء الَّـذِي يُقيّـد المعرفـة منهجيًّـا يعتمـد بالضَّـرورة علـى بعـض الفرضيَّـات، الَّتِي نـادرًا مـا يعتـرف بهـا، والَّتِي لا يتـمُّ التحقيـق فيهـا لجهـة شـخصيَّة الإنسـان، وعلاقتـه بالعالـم. سـأوضح تلـك الفرضيَّـة السَّـائدة، وسأدرسـها بشـيءٍ مـن التفصيـل، مـع إشـارة خاصَّـة إلـى صدورهـا مـن مدرسـتَيْ: المثاليَّـة النقديَّـة، والوضعيَّـة المنطقيَّـة. وأخيـرًا، أتعهّـد بإثبـات أنَّ تلـك الفرضيّـات، وتلـك المفاهيـم الخاصَّـة بطبيعـة الإنسـان ومكانتـه،

تتناقض تمامًا مع جميع النظريّات العلميَّة المعاصرة حيال الإنسان، وعلى نحوٍ خاص مع دليل تطوُّر الإنسان الَّذِي يُشكّل أفضل الحقائق العامّة الَّتِي استشهد بها. وإذا تمّ إثبات كلّ ذلك، سيكون أتباع ذلك الاعتقاد مُستعدّين لإبداء مرونة في موقفهم، وستكون المصالحة الَّتِي ذكرناها أعلاه قد تعزّزت إلى حدٍ كبير.

المفهوم الجديد للإنسان

يكمن وراء كلّ اعتقاد مِيتَافيزيقيّ نظريَّة في الإنسان. ويمكن أن نقول بعباراتٍ بسيطةٍ وواضحة: إنَّ أيّ تفسير للكون يفترض مُسبقًا طبيعة إنسانيَّة مُجهّزة لمعرفة ذلك الكون إلى حدٍّ ما، وبدرجة مُعيّنة. وفي ذلك السِّياق، ينبغي التشديد على أنَّ تلك العبارات تنطبق على الَّذين يرفضون الميتافيزيقا، كما تنطبق على الَّذين يمارسونها. إنَّ إنكار قدرة الإنسان على فهم النظام الكلّيّ للأشياء، والتقليل من قدرته على الاطّلاع على تفاصيل ذلك النظام، يستلزم موقفًا مُحدّدًا تجاه مكانة الإنسان في الكون. وذلك الموقف بدوره يتوقّف على الفرضيّات المُتعلّقة بماهيَّة الإنسان، وطبيعة وجوده، وبالعلاقات الَّتِي تربط بين الإنسان والبيئة الَّتِي تحتضنه.

لقد اعترف الفلاسفة منذ مُدّةٍ طويلة بتلك الحقيقة، وأقرّوا بأنّ محاولاتهم لمعرفة الكون لا يمكن أن تُثْمِر إلَّا بعد الاعتراف بقدرة الإنسان على المعرفة. فقد استند تطوُّر الفلسفة الغربيَّة إلى فرضيَّةٍ واضحةٍ ترى أنّ الإنسان مرتبط بشكلٍ وثيقٍ بنظام الطَّبيعة، وبالمُخطَّط الكُلّيّ للأشياء بطريقةٍ جعلت معرفة ذلك النِّظام واحدة من وظائف الإنسان الطَّبيعيَّة.

صِيغَتْ تلك المُسلّمات في عبارة اختصرتها قضيَّة «الإنسان حيوان ناطق». وبعد قبول تلك الأطروحة، وما ترتّب عليها من آثار، تشكّلت عقيدة الفكر الغربيّ، وارتبطت مدارسه الخاصّة والمُتشعّبة بتراثٍ مُتماسِك.

عندما عَرّف التُّراث الغربيّ الإنسان بأنَّه «حيوان ناطق»، لم يحسب العقل ميزة للإنسان؛ بل رأى فيه صفةً يتشارك فيها مع الكون. إذن، الإنسان في جوهره مُتّحد بالنظام الموضوعيّ: تنبثق طبيعته من ذلك النظام، ولذلك السبب، بات الوصول إليه مُتاحًا. ذلك المفهوم قابل للاتِّساع والتشعُّب مباشرة إلى ثلاث فرضيَّات رئيسة:

الأولى: إنَّ الكون يكشف عن نظام وترابط منهجيّ.

الثَّانية : إنَّ الإنسان جزء لا يَتَجزّأ من الكون.

الثَّالثة: إنَّ الفكر، إذا استعمل مُعْطيات التَّجْربة والعمليّات المنطقيَّة، يمكن أن يدرك المعرفة الواضحة في بِنْيَة الكون، ومِنْ ثَمَّ، يحصل له الفهم.

اعتقد أنّ الحركة الميتافيزيقيَّة المعاصرة في تلك النّقطة تحديدًا قد اختلفت عن التُّراث التّقليديّ. فقد اتَّضح تمامًا، أنّ موقف تلك المدارس مستمدّ من مراجعة جذريَّة للتعاليم التقليديَّة المُتعلّقة بمواصفات التَّحقيق البشريّ وشروطه وحدوده. وحجّتي أنّ ذلك التنقيح ناتج من تغيير جذريٍّ سابق لمفهوم الإنسان. وأنّ ذلك المفهوم الجديد للإنسان غير المعترف به وغير المدروس، هو المسؤول عن تحديد مسار المدارس الحديثة ومحتواها. والآن، حان وقت توضيح تلك الحجّة، أولًا، من خلال توضيح الفهم الجديد للإنسان وتحليله، ثمّ من خلال تبيين أنّ ذلك التفسير له وطأته على أكثر فرضيّات العلوم الاختباريَّة متانةً حيال الإنسان.

الإنسان الخالق

ذلك المفهوم الجديد للإنسان، في وصفِه فرضيَّةً عامّةً، ونقطة انطلاق لتلك المدارس، يجب توقّع أن يكون مفهومًا واسعًا وعامًّا. فهو أقرب إلى إعلان الموقف منه إلى التعريف، وهو برنامج لا جملة من المعتقدات. لكن ما زال بالإمكان تمييز الصِّفة المركزيَّة بوضوح، والتعبير عنها ببساطة، الإنسان هو الحيوان الَّذِي يخلق عالمه من موارده الخاصة اعتباطًا وبإرادته. لكن إذا حسبنا، أنّ مفردة «لغة» تشتمل على جميع الصيغ الَّتِي يُعبّر فيها الإنسان عن نفسه بانتظام، يمكن أن نصل إلى صيغة أكثر إيجازًا، وهي: الإنسان حيوان لُغويّ، بذلك يكون جوهر الشخصيَّة الإنسانيَّة موجودًا في قدرته على فرض الشكل والنظام على المادّة الهيولانيَّة الموروثة في الوعي البدائيّ. وهكذا يكون موضوع حياة الإنسان موجودًا في جهده المستمر بالتعبير عن نفسه بدقّةٍ تامَّة.

نفهم بهذا، أنّ الإنسان لا يقدر على استكشاف العالم الموضوعيّ، ولا يمكنه معرفة ذلك العالم؛ لأنّه لا يقدر على ذلك. جل ما يقدر عليه هو التركيب، إنه يُركّب ويبرز العوالم المُتعددة الَّتِي صنعها من مصادره الذاتيَّة. وتلك المصادر، بالمعنى الواسع، هي المعطيات الحسِّيَّة، والانفعالات العاطفيَّة، والعمليات العقليَّة. تلك العناصر الثلاثة تُشكّل المُعطى الأوّلي للنّفس البشريَّة. إنّها الأدوات الَّتِي تضطرّ النفس للعمل بوساطتها. زد على ذلك، ولا بُدَّ من التشديد على تلك النقطة، إنّها

هبة جوهريَّة تمامًا للنفس، فهي لم توهب للنفس من فاعل خارجي ـ كالله، أو الروح ـ ولا استقتها النفس من تعاملها مع أيّ مصدر خارجيّ، كالعالم المادّيّ، أو عالم المُثل.

المدارس الحديثة مُوحّدة في رفضها إرجاع مصادر الإنسان النفسيَّة لأيّ أصول خارج الإنسان. فمعطيات الحسّ، والانفعالات العاطفيَّة، والعمليّات العقليَّة هي عناصر بالمعنى الدقيق للكلمة: إنَّها من حيث ذاتها لا تسمح بأيّ شرح إضافيّ، كما أنّها لا تحتاج إلى ذلك الشرح؛ بل من خلالها فقط يمكن تفسير سلوك جميع ظواهر الطبيعة الإنسانيَّة . إذن، بعد فهم الإنسان بوصفه حيوانًا لُغويًّا، لم يعد الإنسان مركز الأشياء فحسب؛ بل صار كل الأشياء.

كان لذلك الفهم للإنسان تأثير واضحٌ جدًّا في الطريقة الَّتي كان المُتمسّكون بالنقد والتحليل يعالجون بها بحثهم في الظاهرة الإنسانيَّة. ويمكن التعبير عن جوهر تلك المنهجيَّة بإيجاز: تدرس المدارس الجديدة الإنسان كما لو كان في عزلةٍ تامّةٍ عن البيئة الكليَّة الَّتي يعيش ويؤثر فيها.

يبدو أنَّ أتباع تلك المدارس لا يشعرون بالحاجة إلى البحث لا في أصل الإنسان، ولا في مصيره، وهم يسعون إلى وضعه في نظام أوسع للأشياء، إنهم لا يتصوّرون أنه يمكن أن يعكس أي نظام وجودي غير نظامه هو. وعندما يطبّق ذلك المنهج بشكلٍ صارم، تكون النتيجة وضع الإنسان في خواء تامٍّ من الناحيتين: الميتافيزيقيَّة، والإبستيمولوجيَّة؛ ليس لديه أيّ روابط مع الواقع الخارجي، ولا يمكنه أن يُكوّن معرفة عن أيّ شيء يتجاوز شخصه وأنشطته؛ أي يجب أن يكون البحث في الإنسان محصورًا بالإنسان ـ في ما يختبر، وفي ما يفعل.

عندما يطبّق المنهج بقليلٍ من الوعي الذَّاتيّ وكثير من العقلانيَّة، نجد اعترافًا بالعلاقة بين الإنسان والعالم، لكن بأحكام خاصّة جدًّا. على الرّغم من ذلك، ما زلنا بعيدين من الوصول إلى المكانةِ الخاصّة الَّتي ينبغي أن يحتلَّها الإنسانُ في العالم، كما أنّنا لم نلحظ أيّ تقارب طبيعيّ مع البيئة: إنّه يُعامل بوصفه غريبًا وزائرًا للطَّبيعة. لذا، فإنّ كل دراسة للطبيعة لا تسلّط الضوء على الإنسان؛ وعلى قدرة الإنسان على معرفة الطبيعة تكون دراسة محدودة، ومشكوك فيها.

نتيجة لذلك كلّه، نقول: إنّ المدارس الجديدة تُصوّر حضور الإنسان في العالم حدثًا بلا أهمِّيَّة، وبما أنّ تعريف الإنسان عندهم هو «حيوان لغويّ»، بات الاهتمامُ

مُقْتصرًا على الصِّيغ الَّتِي يُعبّر فيها عن نفسه، والشروط الَّتِي تسمح له بمواصلة خطابه، وفي ذلك تجاهل لارتباط الإنسان بالعالم؛ ونسيان لحقيقة أنّ شخصه وسلوكه يجب أن يكونا أنموذجان عن البيئة، وتسفيه للمطالب الَّتِي تفرضها الحياة عليه.

خلاصة القول: لقد انقلبت النَّظْرة إلى الإنسان رأسًا على عقب، فهو لم يعد مخلوقًا؛ بل صار خالقًا. لم يعد جزءًا تابعًا لنظام مُتماسك وشامل؛ بل بات جزءًا مُكمّلًا له. لقد أصبح السيّد المُطلق والمُتعسّف لمجال حصريّ له، لا يعرف قانونًا غير الَّذِي يختار هو فرضه.

مبادئ المدرسة المثاليَّة النقديَّة والوضعيَّة المنطقيَّة

1. الإنسان حيوان رامز:

ما أقوله في أطروحتي أنّ ذلك الفهم للإنسان هو الفرضيَّة المسيطرة بين أعداء الميتافيزيقا المعاصرين، وبشكل خاص المثاليِّين النّقديّين، والوضعيّين المنطقيّين الذين يختلفون جدًا في غير تلك المسألة. لكن المسألة بالتأكيد أنّ ذلك المفهوم المركزي لم يُطوّر، ولم يعترف به على نطاقٍ واسع. والآن بات من الضروريّ أن ندرس باختصار المبادئ الخاصّة بهاتين المدرستين من أجل إثبات وجود ذلك المفهوم وتأثيره، وتحليله بدقّةٍ وعمق.

منذ أن وصل أرنست كسيرر Ernst Cassirer إلى الذروة في مسيرته الفلسفيَّة بكتابه مقالة في الإنسان an Essay on Man باتت مَهمَّة نقد المثاليَّة النقديَّة في غاية السُّهولة. ينطلق كسيرر في دراسته للإنسان من الإصرار على أنّنا «لا نستطيع تعريف الإنسان على أيّ أساس وراثيّ يمكن أن يشكّل ماهيَّته الميتافيزيقيَّة ـ كما أنّنا لا نستطيع تعريفه من خلال أيّ قوى فطريَّة، أو غريزة يمكن إثباتها من خلال الملاحظة الحسِّيَّة». ثم يتابع بمزيد من الإيجابيَّة: «الميزة الرائعة للإنسان، وعلامته الفارقة، ليست طبيعته الماديَّة، أو الميتافيزيقيَّة؛ بل هي عمله»[1].

تبدو مقاربته تلك واقعيَّة ومثيرة للإعجاب، وهي تحضّرنا لبحثٍ تجريبيّ محض، يأخذ بالحسبان كلّ العوامل الَّتِي تؤثّر في الإنسان، والَّتِي تجعله على ما هو عليه، وكل أشكال النّشاط الَّتِي يُحقّق عمله عن طريقها. لكن كاسيرر انتهج مسارًا أكثر

1- An Essay on Man, New Haven (Yale University Press), 1944, p. 68.

تقييدًا من ذلك، حيث استبعد أن تكون البيولوجيا، والسيكولوجيا، والسوسيولوجيا، والتاريخ دعائم مُثمرة لفهم الإنسان، حتى لو كانت تلك المجالات معروفة تمامًا، فإنّها ما زالت تبقينا فقط في «دوائر العالم الإنسانيّ بالمعنى الضيّق للكلمة»[1]. لقد أفرط كاسيرر في تبسيط مبادئ التطوُّر، والتّحليل النّفسيّ، والاقتصاد ـ وغيرها كالحتميَّة، والخلاص الدّينيّ ـ وأساء تفسيرها، وازدراها.

باختصار، لقد رفض كاسيرر كل مناهج البحث الَّتِي سعت إلى فهم الإنسان من خلال الرُّجوع إلى قوى وظروف موجودة خارج الإنسان. وصاغ أطروحته، في الجمل الَّتِي تلي مباشرة ما اقتبسناه أعلاه، بتلك العبارات: «إنَّ ذلك العمل؛ أي نظام النّشاط الإنسانيّ، هو الَّذِي يعرّف الدائرة الإنسانيَّة ويُحدّدها. أمّا اللُّغة، والأسطورة، والفنّ، والعلم، والتاريخ فهي مُكوّنات وقطاعات مختلفة من تلك الدائرة. ومِنْ ثَمَّ، فإنّ فلسفة الإنسان هي الفلسفة الَّتِي من شأنها أن تهبنا البصيرةَ للوصول إلى البِنْيَة الأساسيَّة لكلّ نشاط من تلك الأنشطة الإنسانيَّة، وهي الَّتِي يمكن ـ في الوقت عينه ـ أن تُمكّننا من فهم تلك الأنشطة بوصفها كلًّا عضويًّا»[2].

هكذا يكون بحث كاسيرر قد حكم على نفسه بالسّير في دائرة مُحكمة الإغلاق؛ غير أنَّ حقيقة سيره في دائرة مغلقة ليست ظاهرة بسهولة؛ لأنها مُنمّقة ومغلّفة بكمٍّ هائلٍ من المواد التجريبيَّة، والتّنظيم العقليّ؛ وتلك الدَّائريَّة ليست حتى دورًا بالمعنى المنطقيّ؛ لأنّ تتبُّع كاسيرر لها يوفّر لنا معرفةً غنيَّةً ودقيقةً بتاريخ الإنسان وتطوّره. إلّا أنَّ البحث عمومًا دائري، لا يسير إلى ما هو أبعد من الإنسان نفسه. ويصبح الأمر واضحًا بمجرّد أن نصل إلى جوهر حُجَّته الَّتِي يمكن أن تُصاغ كما يلي:

- طبيعة الإنسان (الإنسانيَّة) تساوي عمل الإنسان
- يظهر عمل الإنسان على شكل نظام من الأنشطة (لغة، أسطورة، فن، إلخ،...)
- نظام الأنشطة ذلك «يحدّد ويعرّف» طبيعة الإنسان (الإنسانيَّة)

من الواضح أنَّ الطريقة الوحيدة للإفلات من تلك الدائرة تكون من خلال استكشاف إضافيّ «لنظام الأنشطة»، الَّذِي يلخّص عمل الإنسان، ويعبّر عن

1- Ibid.

2- Ibid.

طبيعتـه. أدرك كاسـيرر ذلـك الأمـر، وعمـل علـى اسـتثمار الاحتمـال الَّـذِي يشـير إليـه. ثـمّ يتابـع فـي المقطـع الَّـذِي نقتبـس منـه: اللُّغـة، والفـن، والأسـطورة، والديـن ليسـت إبداعـات اعتباطيَّـة معزولـة؛ بـل هـي مترابطـة معًـا مـن خـلال رابـط. لكـن ذلـك الرابـط ليـس رابطًـا جوهريًّـا vincultums ubstantiale كمـا فهمـه ووصفـه الفكـر السـكولائيّ؛ بـل هـو رابـط وظيفـيّ vinculum functionale. إنّ الوظيفـة الأسـاس للـكلام، والأسـطورة، والفـن، والديـن هـي مـا علينـا أن نبحـث عنـه فيمـا وراء الأشـكال والأقـوال الَّتِي لا تنتهـي، والَّتِي يجـب فـي التحليـل النهائـيّ أن نحـاول تتبّعهـا وصـولًا إلـى مصدرهـا المشـترك[1].

فـي ذلـك المجـال، إنَّ السـؤال الَّـذِي اقتـرح كاسـيرر تتبُّعـه، والإجابـة عنـه فـي نهايـة الكتـاب، أجـاب عنـه بالفعـل، ولـم يتابعـه أكثـر مـن ذلـك. بالطبـع، الإجابـة تكمـن فـي الاعتقـاد بـأنّ الإنسـان حيـوان رامـز animal symbolicum؛ أي أنّ الصفـة الخاصّـة الَّتِي تميّـز الإنسـان هـي أنـه طـوَّر «نظامًـا رمزيًّـا»، وتلـك الصّفـة هـي الَّتِي تُشـكّل «بُعْدًا جديـدًا للحقيقـة». فالإنسـان قـادر، مـن خـلال ذلـك النشـاط الرمـزيّ، علـى إيجـاد أشـكال مختلفـة مـن الحيـاة الثقافيَّـة: اللُّغـة، الأسـطورة، الفـنّ، الديـن، العلـم. وعندمـا توجـد تلـك الأشـكال الثقافيَّـة، فهـي تُشَـكّل البيئـة الأوليَّـة الَّتِي يعيـش فيهـا الإنسـان، وتكـون المُؤثّـر الرئيـس الَّـذِي يحكـم الإنسـان. ثـمّ مـن خـلال تفعيـل تلـك النَّمـاذج يبـدأ الواقـع المـادّيّ بالتَّراجـع شـيئًا فشـيئًا حتـى يصـل الإنسـان إلـى العيـش حصريًّـا أكثـر فأكثـر فـي عالـم رمـزيّ[2].

كان واضحًـاً تمامًـا فـي عـدد مـن مقاطـع كتـاب مقالـة فـي الإنسـان Essay on Man أنّ كاسـيرر لـم يكـن سـعيدًا بنتائـج تلـك الأطروحـة؛ إذ علـى الرّغـم مـن ضـرورة النتيجـة المنهجيَّـة النظريَّـة القائلـة: إنّ الإنسـان لا يسـتطيع الفـرار مـن ذاتـه، ومـن مخلوقاتـه الخاصّـة، فإنـه بقـي مُتـردّدًا فـي قبولهـا. وقـد انزلـق تكـرارًا إلـى الاسـتخدام الحقيقـيّ للُّغـة، وتكلّـم عـن الإنسـان الَّـذِي يكتشـف ويعـرف ويسـيطر علـى العالـم الموضوعـيّ. وقـد أشـار مـرارًا وتكـرارًا إلـى «المَهَمَّـة الأساسـيَّة» و«الوظيفـة الأساسـيَّة» و«الغايـة المشـتركة» الَّتِي يسـعى إليهـا الإنسـان مـن خـلال وسـاطة أنشـطته الثقافيَّـة. لكـن كاسـيرر لـم يحـدّد علـى الإطـلاق مصـدر طبيعـة أنشـطة الإنسـان ووظيفتهـا بـأيّ شـكل باسـتثناء

1- Ibid.

2- لمراجعة تلك الحجّة راجع: cf. especially op. cit., chap. IL.

تلك الخاصّة بالأشكال الرمزيَّة الَّتي تظهر فيها تلك الأنشطة، وقد اختتم البحث بتلك الملاحظة:

إذا نظرنا إلى الثّقافة الإنسانيَّة بالإجمال، يمكن أن نصفها بأنّها مسار التحرُّر الذاتيّ التدريجيّ للإنسان. وما اللُّغة، والفنّ، والدّين، والعلم إلّا مراحل مختلفة في ذلك المسار. يكتشف الإنسان فيها قُدرة جديدة، ويُبَرهن على تلك القدرة ـ القدرة على بناء عالم يخصّه، عالم «مثاليّ»[1].

إذن، لم يستطع كاسيرر الخروج من «دائرة الإنسانيَّة»، وأقصى ما أمكنه فعله هو توسعة البحث، والانتقال من الإنسان الفرد، إلى الثقافة الإنسانيَّة. لا يمكن الخروج من دائرة الإنسانيَّة إلى أيِّ بيئةٍ أوسع تحتويها، وإلى أيّ قوى أخرى أساسيَّة تتحكّم بها. فالإنسان يُحدّد الثقافة، والثقافة تُحدّد الإنسان. وبات الأمر كذلك من اللَّحظة الَّتي اعتقد فيها كاسيرر، في تعريفه الإنسان أنّه حيوان رامز، فالترميز صفة خاصّة بالإنسان. لكن إذا كان ما يُحدّد ماهيَّة الإنسان خاص بالإنسان، فمن الضَّروريّ أن يُستبعد الإنسان من أيِّ ارتباط مُهمّ وملحوظ بالنظام الموضوعيّ. يمكن الآن عرض تلك النتيجة الحتميَّة الَّتي أوصلنا إليها مفهوم الإنسان الَّذي بدأت منه مثاليَّة كاسيرر النقديَّة بوضوح من خلال العودة من جديد إلى القياس الأساس:

- الإنسان حيوان رامز.
- الأنشطة الرمزيَّة توجِد نماذج الحياة الثقافيَّة الإنسانيَّة .
- الثقافة هي عمليَّة التطوُّر الذاتيّ للإنسان والتعبير الذاتيّ عنه.
- تلك العمليَّة الثقافيَّة وأطوارها (فن، علم، إلخ...) تشكّل العالم الَّذي يعيش فيه الإنسان، ويعمل فيه.
- الإنسان يعيش في عالم خلقه بنفسه.

أعتقد أنّ المنطق في تلك الحُجّة صارم؛ غير أنَّ استبدال «الناطق» بـ «الرامز» في مفهوم الإنسان، وفي تعريفه بالطريقة الَّتي اعتمدها كاسيرر اضطرّه إلى عزل الإنسان عن جميع المؤثّرات الموضوعيَّة، ورفعه إلى مستوى الخالق من العدم. وذلك جعله يستبدل الواقع بالإنسان، والوظيفة بالماهيَّة، والميتافيزيقا بالفينومينولوجيا. ثمّ تتوّج ذلك كله باستبدال أخير للفلسفة بالتاريخ؛ لأنّ كل ما يمكن للمرء دراسته في ذلك السّياق هو ما فعله الإنسان.

1- Ibid, p222.

2. الإنسان حيوان عالم:

لا توجد وثيقة في كتابات الوضعيِّين المنطقيِّين، أو غيرهم من المُحلّلين، تحتوي على مناقشة لمفهوم الإنسان بالمنهجيَّة والشمول اللذين نوقش بهما في كتابات كسيرر الَّتِي حقّقت فيها. كان انشغال تلك المدارس محصورًا بالجانب المنهجيّ تقريبًا؛ وتركّز اهتمامهم على البِنْيَة الشكليَّة للعلوم، لا على الكيانات الجوهريَّة الَّتِي تشكّل موضوعات تلك العلوم. وذلك يعني أنَّهم في السّياق الإنسانيّ سوف يتحدثون مُطوّلًا عن «السيكولوجيا»، وليس عن «الإنسان»[1] مطلقًا.

إذا كانت المسألة على ذلك النّحو، فإنَّ مفهوم الإنسان الَّذِي يُشكّل أساس أعمال الوضعيِّين المنطقيِّين، له وضع الفرضيَّة الكامنة تمامًا، ويجب تنقيته من أيّ اهتمام صريح يعطونه للظاهرة الإنسانيَّة. يجب أن يكشف نطاق السُّلوك البشريّ، وأنواعَ الصناعات البشريَّة الَّتِي يركّزون عليها انتباههم، عمّا يحسبونه ماهيَّة الإنسان، ويجب أن تبيّن الطريقة الَّتِي يفسّرون بها ذلك السُّلوك، وتلك الصِّناعات ذلك التعريف بصورةٍ مباشرة.

إذا اتّبعنا تلك المنهجيَّة، يمكن أن نستحضر الإنسان كما تصوَّرته الوضعيَّة المنطقيَّة بسهولة. تلك المدرسة لم تلخّص ذلك المفهوم بشكلٍ صريح، وبصيغةٍ مُنمّقة كما حصل في صيغة الإنسان الرامز عند كسيرر. لكن هناك صيغة شبيهة طُرِحَت بوضوح وفاعليَّة، هي: الإنسان حيوان عالم. فقد تبيّن أنَّ النّمط الأوحد من السُّلوك البشريّ الَّذِي اهتمَّ به الوضعيُّون المنطقيُّون هو التحقيق؛ والشّكل الوحيد من الصّناعة البشريَّة الَّذِي اهتمّوا به هو المعرفة. وإذا جمعنا الأمرين، فهما يُشكّلان العلم، أو بتحديد أكثر، إنّهما البُعْدان اللَّذان يعكس العلم نفسه من خلالهما، التحقيق هو الإجراء الَّذِي يتّبعه العلم؛ والمعرفة هي النتيجة الَّتِي ينتجها العلم. وعندما تتحدّث الوضعيَّة المنطقيَّة عن الإنسان، فهي دائمًا تتحدّث عن أحد هذين الأمرين: إنّها تنظر إمّا في ظروف التحقيق النّاجح، أو في معايير المعرفة الصَّحيحة. أمّا الأنماط الأخرى من السُّلوك البشريّ، كالانفعاليّ، والأخلاقيّ

1- For example, the recent Readings in Philosophical Analysis contains papers by Professors Carnap, Hempel, and Schlick on the nature of psychology as a science. It contains no paper that even touches on the nature of man as a being.

والجمالي، والدينيّ؛ فقد كان التعامل معها على أساس أنّها تافهة، أو مُنحرفة؛ ومن جهة أنواع الصَّنائع البشريَّة الَّتي تقابلها، فقد عُدَّت فاقدةً لأيِّ معنًى موضوعيّ يمكن التحقُّق منه. ومِنْ ثَمَّ، لا مكان لها في الحياة المُنتظمة.

نظرًا إلى أنَّ الوضعيِّين المنطقيِّين يحسبون العلم نشاطًا بشريًّا بامتياز، فإنّ شرحهم لمنهجيَّات العلم ونتائجه يوفّر رؤيةً شاملةً وموثوقةً في تفسيرهم للطَّبيعة البشريَّة . فمنذ أنْ عبّر أفلاطون للمرة الأولى عن قضيَّة «الوجود قدرة» قُبلت وصارت مألوفة. الإنسان هو الفعل الَّذي يفعله، والإنسان يُمارس العلم. إذن، إنّ صفات الإنسان وقدراته تُقاسُ من خلال ممارساته وإنجازاته بوصفه عالمًا.

أكثر مقاربة مباشرة لنظريَّة العلم عند الوضعيِّين كانت من خلال نظريّتهم في القضيَّة. اكتسبت تلك النّظريَّة أهميَّةً مركزيَّةً؛ لأنَّ الإنسان يكشف شخصيّته في استعماله للقضايا، ويمكن عرض النّظريَّة بإيجاز. الحقيقة الأهمّ بالنسبة إلى القضايا هي أنّها تنقسم إلى فئتين: فهي إمّا تركيبيَّة، أو تحليليَّة . فالقضايا التركيبيَّة، الَّتي تُشكّل صلب العلوم الطّبيعيَّة، هي قضايا تجريبيَّة، مُستمدَّة من التجربة، ولها مضمون واقعيّ، إنّها مؤقّتة، أو افتراضيَّة، يُحدّد صدقها من خلال الرجوع إلى الحقائق التجريبيَّة. أمّا القضايا التحليليَّة، الَّتي تُشكّل المنطق والرياضيات، فهي قضايا قبليَّة، وربما حتى لو كانت على الأقل مُستخلصة جزئيًّا من التجربة (الوضعيّون المنطقيّون غير حاسمين لا بوصفهم مجموعةً ولا بوصفهم أفرادًا في تلك المسألة. من هنا، أتى ذلك التعبير غير المُتقَن)، فإنّ ذلك النوع من القضايا يؤكّد مسائل تتجاوز نطاق التّجربة، إنّها تعابير شكليَّة عن الطُّرق الَّتي يجب أنْ تجمع فيها الكلمات والأفكار، وهي لا تشير إلى مرجع واعٍ، إنّها ضروريَّة ويقينيَّة، لا يُحدّد صدقها إلَّا عن طريق التعاريف والرموز، وما تحتوي عليه من عمليَّات. وكما قال ألفرد جول آير A. J. Ayer يتّفق هذان النوعان من القضايا على التوالي مع تقسيم هيوم للقضايا إلى قضايا تُعبّر عن «المسائل الواقعيَّة»، وقضايا تُعبّر عن «العلاقات بين الأفكار»[1].

لقد استنفدت قُدرة الإنسان الجوهريَّة ـ وظيفته بوصفه عالِمًا ـ في إطلاق هذين النّوعين من القضايا. إذن، مفهوم الإنسان عند الوضعيِّين المنطقيِّين يمكن

1- A. J. Ayer, Language, Truth and Logic, New York (Oxford ULniversity Press), 1936, p. 11.

أن يـدرك تمامًـا مـن خـلال تحليـل صفـات هذيـن النّوعيـن وحدودهمـا مـن القضايـا؛ لأنّهمـا يُشـكّلان البِنْيَـة الجوهريَّـة لمـا يفعلـه الإنسـان، ويُبيّنـان النّـواة المركزيَّـة لِمَاهِيَّـة الإنسـان.

الصِّفـة المعرّفـة للقضايـا الحقيقيَّـة، أو التركيبيَّـة، هـي أنّهـا تشـير دائمًـا إلـى محتـوى موجـود بالفعـل، أو قـد يكـون معطـى تجريبيًّـا واقعيًّـا. فمصدرهـا تجريبـيّ، ووظيفتهـا توقّـع التجـارب المُسـتقبليَّة، ويتحـدَّد صدقهـا مـن خـلال الاحتـكام إلـى نتائجهـا المختبـرة. بالطَّبـع، ذلـك مطابـق لمقولـة التجريبيّيـن التقليديّيـن؛ غيـر أنّ الوضعيَّـة المنطقيَّـة تُحـدّد ميـزة ذلـك النـوع مـن القضايـا بدقّـةٍ تامّـةٍ مـن خـلال تحديـد صـارم لـ «التجربـة». فالتجربـة بوصفهـا ركيـزة القضايـا التركيبيَّـة الصَّادقـة، هـي دائمًـا وفقـط تجربـة حسِّيَّة. والمعطيـات الحسيَّة ثابتـة وواضحـة بمـا يكفـي لتُشـكّل دليلًا علـى العالم الخارجـيّ، وأساسًـا لقضايـا يمكـن التثبُّـت مـن صحّتهـا علنًـا.

مِـنْ ثَـمَّ؛ يُميّـز آيـر بيـن اختبـار الموضـوع واختبـار اللـه، ويقـول: إنَّهمـا أنموذجـان من الاختبـار مُتمايـزان تمامًـا؛ لأنّ الأوّل يُعنـى بـ «المضمون الحسّـيّ» الَّـذِي يمكن التحقُّق مـن «صدقـه تجريبيًّـا»، فـي حيـن لا يُمكـن فعـل ذلـك مـع الآخـر[1]. وهـو وفقًـا لذلـك، يُحـدّد الوظيفـة المناسـبة للقضايـا التركيبيَّـة بقولـه: «صمّـم ذلـك النّـوع مـن القضايـا مـن أجـل أن نتمكّـن مـن توقُّـع مسـار أحاسيسـنا»[2]. يتمثّـل تأثيـر ذلـك الاعتقـاد بالحدّ الجذريّ مـن معرفـة الإنسـان الموثوقـة بالعالـم، وحـواره المشـروع مـع غيـره مـن البشـر. فهـو يؤكّـد أنَّ المُعْطيـات الحسِّيَّة فقـط، مـن بيـن المُكوّنـات الكثيـرة للتجربـة، هـي الَّتِي يُمكـن أن تُتيـح للإنسـان إقامـة علاقـة هادفـة مـع أيّ شـيءٍ خـارج ذاتـه.

فـي المقابـل، إنَّ الصّفـة المُميّـزة للقضايـا التّحليليَّـة، أو القبليَّـة أنّهـا دائمًـا تكـون تكراريَّـة حشـويَّة؛ تشـرح التَّعاريـف اللَّفظيَّـة. وإنّهـا لا «تصـدر أيّ حكـم يخـصُّ العالـم المـادّيّ»، ولا «تُوفّـر أيّ معلومـات عـن أيِّ مسـألةٍ واقعيَّـة»[3]. وهـي عبـارة عـن توافـق

1- Ibid., pp. 181-182.

2- Ibid., p. 139.

3- IbThis argument has been interestingly developed by Ernest Nagel in an article, «Logic without Ontology,» in Naturalism and the Human Spirit, ed. by Y. H. Krikorian, New York (Columbia University Press), 1944, pp. 210- 241; and by H. R. Smart, «What is Deduction?,» Philosophy and Phenomenological Research, Vol. V (1944), pp. 37-49.id., pp. 114 and 104.

تقليديّ على استخدام الكلمات بطريقةٍ مُعيّنة. باختصار، إنّها قواعد تحكم معاني الرموز واستعمال اللُّغة. ومِنْ ثَمَّ؛ فإنّ الاتّجاهات السّيكولوجيَّة والمادِّيَّة لا تتلاءم مع القضايا التّحليليَّة. كما أنّ أنظمة الخطاب الَّتِي تشتمل على تلك القضايا ـ مثل: المنطق، والرياضيات ـ «لا تُعْنى بخصائص عقول البشر، ولا تهتمّ بخصائص الموضوعات المادِّيَّة إلّا نادرًا»[1].

لكن تبقى تلك المجالات شكليَّة تمامًا: لا يتأثّر مسارها بالمحتوى المادِّيّ، ونتائجها مُستقلّة عن المسائل الواقعيَّة. أمّا نتيجة ذلك الاعتقاد، فهي عزل عقل الإنسان تمامًا عن البيئة الطبيعيَّة، وعن حاجات الإنسان وغاياته المُعقّدة. فالعمليّات الفكريَّة هي عمليّات رياضيَّة ومنطقيَّة؛ لكن لو كانت الرياضيَّات والمنطق تعاهديَّة فحسب؛ لما أمكن لها أن تتّفق بأيّ شكلٍ مع بِنْيَة العقل، ولا مع بِنْيَة العالم، ومِنْ ثَمَّ؛ تكون قابليَّة تطبيق الفكر على الأشياء إمّا خرافة، أو لغزًا. إذن، يؤكّد ذلك الاعتقاد أنّ طرائق التَّفكير الاستنباطيّ تنشئ علاقة تقوم بين أفكار الإنسان فقط، ليس بين تلك الأفكار، وأيّ شيء آخر.

يُمكنُنا الآن تلخيص النّقاش من أجل تشديد التركيز على مفهوم الإنسان عند الوضعيّين الَّذين يرون أنّ العلم هو نتاج الإنسان ونشاطه الجوهريّ. وذلك العلم يتألّف من قضايا تركيبيَّة، وقضايا تحليليَّة. إذن، الجزء المُقوّم لماهيَّة الإنسان، وعلاقاته بالنظام الموضوعيّ، يظهر في خصائص تلك القضايا. فالقضايا التحليليَّة هي عبارة عن تعريفات وقواعد أعلن عنها الإنسان بشكلٍ عشوائيّ، فهي لا تعكس أيّ علاقة بين الإنسان والعالم الخارجيّ. والقضايا التركيبيَّة لا تتعامل إلّا مع حقائق إمبريقيَّة كما تقدّمها المعطيات الحسِّيَّة، أمّا الروابط الَّتِي توجدها بين أفراد الإنسان، وبين الإنسان والأشياء، فإنّها تقتصر على ما تُقدّمه الحواس.

مِنْ ثَمَّ، تكون علاقات الإنسان بمحيطه مزيجًا من الهشاشة والتعسُّف. ولأسباب لم تتَّضح على الإطلاق، فإنّ قدرًا قليلًا ومُحدّدًا من التجربة ـ الإحساس ـ كفيلٌ بأن يكون دليلًا موثوقًا على الأمور الواقعيَّة؛ بينما كل ما عدا ذلك في التجربة محكوم بالذاتيَّة، والافتقار إلى الدقّة. ومن دون أسباب على الإطلاق، عقدت عمليَّات التفكير الصوريّ لتكون ملائمة ومفيدة في تعاملنا مع الوقائع، على الرّغم من أنّ تعريف تلك العمليَّات هي أنّها مجرّد مواثيق وضعها

1- Ibid., p. 107.

الإنسـان مـن أجـل تسـهيل الحـوار.

الخَلَلُ المنطقيُّ في ذلك الموقف واضح، وقد بيّنه آخرون أكثر تخصُّصًا منّي في تلك المسائل[1]؛ فأنا هنا لا أهتمّ بمدى دقّة ذلك الرأي؛ بل بالتفسير العام للإنسان الَّذِي يرتكز عليه، ويقوم على أساسه. أعتقد الآن أنَّ الأمر بات واضحًا، الإنسان الوضعيّ هو كائن يلتقط لمحةً موجزةً وسطحيَّةً عن العالم، ثمَّ يعتزل ويبحث في داخله من أجل تطوير نظام أفكار يتيح له توقُّع اللّمحات المستقبليَّة. ثمّ يقوم نظام الأفكار ذلك بدمج خصائص الكائن الَّتِي تبدو متنافرة؛ بسبب بِنْيَتها التعسُّفيَّة، وفعاليّتها العمليَّة. وعلى الرّغم من غياب التفسير الواضح لكيفيَّة تحقُّق تلك المعجزة، كان لا بُدّ من إقرارها حتى تكون جزءًا مُتمِّمًا للاعتقاد الوضعيّ: ذلك ما يستنتج من تعريفهم الواضح للإنسان بأنّه حيوان عالم إلى جانب تحليلهم الواضح جدًّا للعلوم. ما أُؤكّده هنا أنَّ المسار الضروريّ، والنتيجة الحتميَّة لرأي الوضعيِّين يمكن أن يتَّضح بشكلٍ أفضل من خلال العرض الآتي:

- يمارس الإنسان البحث العلميّ.
- البحث قادر على الوصول إلى نتائج صادقة ومثمرة في الوقت نفسه.
- كي تكون تلك النتائج صادقة، يجب أن تعتمد على الرموز، وعلى إجراءات عشوائيَّة، وقبليَّة، في الوقت نفسه.
- كي تكون تلك النتائج مثمرة يجب أن يكون لها علاقة مرجعيَّة مع الواقع التجريبيّ.
- إذن، نتائج البحث ـ المعرفة العلميَّة ـ يجب أن تكون مُقرّرة ذاتيًّا لكنها ملائمة موضوعيًّا.

النّتيجة أنّ الإنسان هو الكائن الَّذِي يخلق العالم الَّذِي يعرفه. ومن جديد، أعتقد أنّ المنطق في ذلك القياس دقيق جدًّا. الآن يجب أن يكون التوافق بين آراء الوضعيَّة المنطقيَّة، والمثاليَّة النقديَّة الَّذِي تحدّثت عنه سابقًا واضحًا. ويجب أن يكون مفهوم الإنسان مركزيًّا لهاتين المدرستين ـ كما لغيرهما ـ وذلك المفهوم يتماهى جوهريًّا في الحالتين. بالنسبة إلى المُحلّلين، يحلّ البحث مكان الرمزيَّة

1- Cf. articles cited in footnote 13. Also Brand Blanshard, The Nature of Thought, Vol. II, Chap. XXX; and C. I. Lewis, «Experience and Meaning,» Philosophical Review, Vol. XLIII (1934), pp. 125-146.

بوصفها العمليَّة الَّتِي من خلالها يعبّر الإنسان عن قدراته الجوهريَّة. وتحلّ المعرفة مكان الأشكال الرمزيَّة بوصفها أداةً يستخدمها الإنسان في خلقه لعالمه. وعالم العلم يحل مكان عالم الثقافة بوصفها البيئة الَّتِي يعيش فيها الإنسان، ويدرك نفسه من خلالها. واضح أنّ الاختلاف ليس كبيرًا، ففي كلا الحالتين، الإنسان يقوم بخلق عالمه من مصادره هو، ويكون التعامل معه في أفضل الأحوال، على أساس أنّه معتدٍ على الطبيعة، يتمتّع بسلطةٍ تُمكّنه من فرض شروطه على البيئة الَّتِي تحتضنه. باختصار، تلك المدارس تفهم الإنسان بوصفه كائنًا مستقلًّا تمامًا لا يحافظ على أيّ روابط حيويَّة مع أي شيء خارج ذاته.

الإنسان نتاج تطوُّر عضويّ

حتى الآن كان المقصد من تحليلي إثبات أطروحة بسيطة لكن مُهمّة وهي: إنّ الفرضيَّة المسيطرة في المثاليَّة النقديَّة والوضعيَّة المنطقيَّة ـ المدرستان الرائدتان في معاداة الميتافيزيقا ـ هي أنّ فهمهما للإنسان يعزل الإنسان تمامًا عن محيطه. وهدفي الآن أن أثبت أن ذلك الفهم للإنسان غير كاف، ومصطنع، والأهمّ من كل ذلك أنه غير تجريبيّ.

ترتكز كل مقدِّمة من مُقدّمات القياس بالضرورة على بعض الفرضيَّات. كنت أنتقد الفرضيَّات الَّتِي أعتقد أنها مركزيَّة، على الرّغم من عدم ظهورها في الفلسفة الأكثر حداثة. والآن، قبل متابعة مناقشة تلك الفلسفة، من الإنصاف أن أقوم بتوضيح الفرضيَّات الواردة في حجّتي الخاصّة. ومن جديد، يمكن عرضها باختصار شديد: أنا أفترض أنّ الإنسان نتاج تطوُّر عضويّ. سأشرح فهمي لتلك القضيَّة، بتلك الطريقة: التطوّر العضوي هو صيرورة مستمرّة حصلت وما زالت تحصل، فالإنسان بوصفه نوعًا من الكائنات الحيَّة، كان خاضعًا لتلك الصَّيرورة، وصل إلى ما هو عليه الآن تحت تأثير تلك الصَّيرورة؛ وأنا أرى أنّ الطريقة الأكثر فاعليَّة لفهم بِنْيَة الإنسان ووظيفته تكون من خلال معرفة الاحتياجات الَّتِي فرضتها عليه تلك الصَّيرورة. وبما أنَّ الإنسان ذاته يُشكّل حلًّا مُمكنًا للمشكلة الَّتِي يطرحها التطوُّر داخل البيئة، فإنّ قدرات الإنسان وأنشطته هي الوسائل الَّتِي تلبّي شروط الحياة ومتطلبات التكيُّف.

عليّ، في البداية، أنْ أوضّح مسألة تجنُّبًا لأيِّ إساءة فهمٍ مُحْتملة. وهي أنّني لا

أقترح، ولا حتى أتبنّى، تفسيرًا مُعيّنًا من تفسيرات التطوُّر. وعلى الخصوص، أنا لا أتبنّى أيّ شكلٍ من أشكالِ الفلسفات المادِّيَّة أو الميكانيكيَّة؛ بل أترك مسألة القوى والعوامل المسؤولة عن التطوُّر والتحكّم في مساره مفتوحة بالكامل، ومن دون معالجة. فأنا أفترض، كما يفترض الجميع، أنَّ تلك القوى والعوامل موجودة. لكن تحديدها ليس مُهمًّا لبحثي هذا.

أعتقد أنَّ مجموعةً متنوّعةً جدًّا من الأنظمة الميتافيزيقيَّة يمكن أن تقبلَ وتضمّ عقيدة التطوُّر في منظومتها. وأعتقد أنّ أيّ نظام من ذلك النّوع يزعم بأنه معاصر، يجب أن يقبل تلك العقيدة. بالتأكيد، ذلك ليسَ المكان لتفسير، أو شرح التطوّر، وأنا بالتأكيد لست الشخص الَّذِي يستطيع ذلك. ومرّة أخرى، أقول: إنّ مسألة الطبيعة الدَّقيقة للعمليَّة التطوُّريَّة، والأسباب الَّتِي تحكمها، ليس لها أهمِّيَّة بالنسبة إلى الحُجَّة الَّتِي أطرحها.

المُهمُّ أن نفترض أنَّ العمليَّة حصلت، وأنَّ الإنسان كان حلقةً من حلقاتها. وتلك الفرضيَّة الَّتِي أتحدَّث عنها تجمع عليها الآراء العلميَّة. وأنا أفترض، أنَّ الإنسان مهما كان، هو كائن قد تطوّر، وأرى أنّ تلك الحقيقة هي أكثر حقيقة واقعيَّة متوفّرة بخصوص الإنسان. والآن، سأثبت أنّ حقيقة تطوُّر الإنسان تكفي لدحض مفهوم الإنسان المركزيّ عند المثاليَّة النقديَّة والوضعيَّة المنطقيَّة. وسأترك مجال تلك الحجّة مباشرًا، وموجزًا قدر الإمكان.

ما الَّذِي نقصده عندما نقول: إنّ الإنسان تطوّر؟ إنّنا نقصد أنّه كان ناجحًا في منافسته للكائنات الحيَّة الأخرى من أجل الحصول على مكان في البيئة. فكلّ الكائنات الحيَّة تعتمد على البيئة: إنَّها تعتاش من خلال استغلال موارد البيئة، ومن خلال تطوير الموارد الكامنة داخلها؛ أي، كما عبّر عن ذلك بعض علماء الأحياء، إن الوظائف المُمكنة للكائنات الحيَّة والبيئة تتحوّل إلى وظائف حقيقيَّة [1]. وتلك في الحقيقة هي ديناميّات التكيّف. إذن، تنطوي علاقات التكيُّف على مواءمة مستمرّة للكائن الحي مع محيطه. في تلك العمليَّة الهائلة الَّتِي قامت من خلالها تلك العلاقة، وتهدّدت وتزعزعت، وأعيد تأسيسها، أو أبطلت، تحصل تغيّرات في

1- تلك الطريقة في تصوير المسألة صدرت من A. E. Parr, ونوقشت بالإحالة إلى المصدر في كتاب لـ G. G. Simpson, Tempo and Mode in Evolution, New York (Columbia University Press), 1944, Chap. VI, esp. pp. 183-196.

الكائن الحي والبيئة. من بين مُحدّدات تلك العمليَّة المعترف بأهمِّيّتها على نطاقٍ واسع هنالك: الطفرات الجينيَّة، والتغيّرات البيئيَّة، والتحوُّلات السُّكانيَّة، وضغط الاصطفاء. وقد توجد مُحدّدات أخرى. والتطوُّر اسم مجرّد يُطْلقُ على الالتقاء التّام للأحداث الَّتِي تحصل جرّاء التفاعل بين تلك المُحدّدات. أمّا التكيُّف فهو الاسم الَّذِي يساويه في التَّجريد، وهو ينطبق على المشكلة الَّتِي يفرضها وجوده على الكائنات الحيَّة ـ وكذلك ـ على العمليّات الَّتِي تحلّ من خلالها الكائنات الحيَّة تلك المشكلة. أمّا مكافأة الحل الناجح فهي البقاء.

بسبب نجاح الإنسان في تلك العمليَّة وبقائه، فمن البدهيّ أنْ يكون قد توصّل إلى ذلك الحلّ؛ أي أنّه طوّر مواصفات ونماذج من الأنشطة تُتِيح له النّجاح في عمليَّة التكيُّف. نستطيع استخلاص نتائج مُهمّة من تلك البديهة. منها ضرورة أن يكون سلوك الإنسان محكومًا بجهاز ـ بتركيبات وميكانيزمات ـ يضمن أن يكون سلوكه مُلائمًا للبيئة، ويلبّي احتياجات الكائن الحي. وإنّ الأنشطة الَّتِي يُمارسها الإنسان، والمصنوعات الَّتِي ينتجها ويستخدمها يجب أن تكون بإشراف قوى وعمليّات تتناسب مع خصائص البيئة الَّتِي يعيش فيها الإنسان، ومع أنماط التكيُّف الَّتِي يُوظّفها الإنسان، وذلك يعني أنّ موارد الإنسان يجب أن تكون مُلائمة للشروط الَّتِي يتعيّن عليه تلبيتها.

من أبرز الموارد الإنسانيَّة : المُعْطَيات الحِسِّيَّة، والدَّوافع العاطِفيَّة، وعمليَّات التَّفكير. فالإنسان بوصفه حقيقةً بيولوجيَّةً، يعتمد ـ بشكلٍ كبيرٍ ـ على تلك الأمور الثّلاثة بوصفها أدوات للتَّكيُّف. وذلك الاعتماد ليس تامًّا؛ لأنّ الغريزة، وردّات الفعل الانعكاسيَّة، والعادات لها دورها أيضًا. لكن العمليَّة الَّتِي يتكيَّف الإنسان من خلالها مع البيئة هي عمليَّة واعية إلى حدٍّ كبيرٍ، وتُنفّذ بإشراف الحواس، والشعور، والفكر. وعادةً يحصل تعامل الإنسان مع الأشياء في البيئة في إطار ما نُسمّيه «التجربة»: الَّتِي من خلالها نفهم طبيعة الأشياء، ونقيس أهمِّيَّة الأشياء بالنسبة إلينا، ونكتشف العلاقات الزمانيَّة والمكانيَّة الَّتِي تربط بين الأشياء. نفعل ذلك كلّه من خلال العمليّات الحسِّيَّة، والمشاعر، والفكر. تلك هي الأشكال الأوّليَّة للتجربة الَّتِي تمتزج باستمرار بعضها مع بعض، وتخبرنا عن بِنْيَة البيئة، وتوجُّه الاستجابات الَّتِي نتكيّف من خلالها مع البيئة. ذلك الجزء من ذلك التّذَبْذُب في المعاملات الصّادرة والواردة الَّتِي تدخل إلى الوعي، نُسمّيه التجربة.

ذلك يعني أنَّ التجربة قبل أيّ شيءٍ آخر هي عامل تكيُّف. وكما يؤكّد علماء الأحياء، وعلماء الأعصاب من دون تردُّد أنّ المركز الأعلى في الجهاز العصبيّ هو الَّذي يُشكّل أساس التَّجربة الواعية، ويُشكّل الآليَّة الفريدة لدى الإنسان للتّكيُّف مع الأشياء الَّتي تُحيطُ به. وتُعَدُّ الحواسّ، والعواطف، والفكر، من القدرات الأهَمّ في تلك المراكز العُلْيا. ومِنْ ثَمَّ، يجب أن تكون تلك القدرات، الَّتي تنعكس عمليّاتها في التجربة، مُوجّهة لمُتطلّبات البيئة وخصائصها، أي؛ يجب أن يزوّدنا الحسّ، والعواطف، والفكر ـ الجهاز العصبيّ المركزيّ، إذا فضّل المرء أن يفكّر بالبِنْيَة الفعليَّة الَّتي تُشكّل تلك القدرات وظائف فعليَّة منه ـ بتفسير مناسب للعالم الخارجيّ، وأن تُشكّل تلك القدرات أنموذجًا للمُرشد الفاعل في تعاملنا مع الأشياء الموجودة في العالم.

يمكن تأييد تلك النَّتيجة المُهمّة بحجّتين؛ الأولى: ترتكز على الوقائع، والأخرى: على ضرورات المسألة. ويمكننا ذكرهما بإيجاز: أوّلًا، بالنسبة إلى الواقع، إذا نظرنا إلى الجهاز العصبيّ عند الإنسان من النّاحيتين: البِنْيويَّة، والوظيفيَّة، نجد أنه قد تكوّن ببطء، وتدرّج في مسار النُّمُوّ التطوُّريّ. في أثناء ذلك المسار بلورت تلك المراكز العُليا بِنْيَتها الحاليَّة شيئًا فشيئًا، وكانت ـ في الوقت نفسه ـ تتكفّل بالحصّة الأكبر من السُّلوك الإنسانيّ. لذا، فإنَّ أكثر الوظائف النَّفسيَّة؛ كالإدراك، والعواطف، والفكر، تقوم بالدّور الأهمّ في عمليَّة تكيُّف الإنسان مع البيئة. والمسألة الَّتي تحتاج إلى تأكيدٍ هي أنّ ذلك لم يحصلْ فجأةً، ولا تعسّفًا. فسجلّ علم الحفريّات واضحٌ جدًّا في تلك المسألة: الإنسان بوصفه كائنًا حيًّا، وبوصفه شكلًا من أشكال التكيُّف يتطوّر تدريجيًّا، وفي اتِّصالٍ مباشر بالبيئة. كما أنّ ما تؤكّده شواهد علم الوراثة الحديث لا يقلُّ أهمِّيَّةً في الإصرار على أنَّ تلك التغيّرات البِنْيويَّة والوظيفيَّة لا يمكن أنْ تكون نتاج أيّ طفرة هائلة: إنَّها تُمثّل تراكمًا تدريجيًّا، وانتشارًا لعددٍ من التحوُّلات الصَّغيرة ذات القيمة الاصطفائيَّة.

أخيرًا، أكّد علماء الأعصاب من خلال استنادهم إلى المبدأ الثَّابت أنّ التطوُّر الجينيّ يتكرّر بالوراثة، وأكدوه جزئيًّا من خلال دراساتٍ مُتأنِّية في مجال علم الأجنّة المقارن بالمسألة نفسها. كما أنّ جميع الشَّواهد التجريبيَّة الَّتي اعتنى العلماء بتحليلها تُصوّب بالاتّجاه نفسه: لقد تطوّرت البِنْيَة العصبيَّة الخاصّة بالإنسان، والوظائف الَّتي تُعزّز تلك البِنْيَة، تحت تأثير الظُّروف البيئيَّة، وشكّلت وسيلةً

للتَّعامُل مع تلك الظُّروف. إنّها أدوات تكيُّف أثبتتْ فاعليّتها الفريدة. وذلك يعني أنّ لها حساسيَّةً خاصَّة وشديدةً تجاهَ البيئة: إنّها تُوفّر للإنسان وعيًا أشمل وأدقّ بالبيئة، وقدرةً على الاستجابة وفقًا لمُتطلّباتِها[1].

أمّا حُجّة الضَّرورة، فإنّها تنبع مباشرة من تلك الحقائق، حيث تُشكّل القدرات العُلْيا للإنسان الجانب الوظيفيّ للجهاز العصبيّ المركزيّ، وتلك القدرات هي الموارد الَّتي يُنفّذ الإنسان بتوجيهاتها عمليَّة التكيُّف؛ أي أنّها تُشكّل الآليَّة المُتخصّصة الَّتي يستوفي من خلالها الكائن الحي البشريّ شروط الحياة في البيئة. لذا، يجب أن تكون عمليَّات تلك القدرات مناسبة للشّروط الَّتي عليها تلبيتها.

تتشكّل تلك العمليّات بشكلٍ واسع من جمع المعلومات وتنظيمها عن البيئة. فالسُّلوك الإنسانيّ كما يظهر في الوعي، وكما يُحلّلهُ علماء الأعصاب، يعتمد ـ بشكلٍ كبيرٍ ـ على ما يمكن أن نجمعه بشأن الأشياء الَّتي نتعامل معها ـ من بينها بالطّبع الكائن الحيّ البشريّ نفسه. يتكيّف الإنسان مع البيئة، ويكتشفها عن قصد تامٍّ عن طريق الحواسّ، والعواطف، والفكر، ثمّ بعد ذلك من المُعْطيات والنتائج الَّتي يستخلصها، وبعدها يُكوّن صورةً للظروف المحيطة، ولما تتطلّبه منه تلك الظُّروف. ومِنْ ثَمَّ، يتصرّف بناءً على تلك المعلومات. ويجب أن تتلاءم المعلومات ـ نظرًا إلى أنَّ الفعل المرتكز عليها يكون ناجحًا ـ مع ما تُعلمنا به؛ أي مع الخصائص البيئيَّة. ومن الضَّروريّ أن ينطبق ذلك على جميع الموارد الَّتي يتلقّى الإنسان من خلالها تلك المعلومات. لا يوجد ما يُسوّغ تفضيل أحدها، أو بعضها، وعَدّه جديرًا بالثّقة، ورفض أحدها، أو بعضها. من الواضح أنّ تلك النقطة مركزيَّة، لكنّني لا أستطيع متابعتها هنا. مع ذلك أستطيع تأكيدها: الحس، والعواطف، والفكر؛ جميعها وسائل تكيُّف في المستوى نفسه، وجميع تلك الوسائل الَّتي تؤدّي وظائفها كما ينبغي عن طريق المعلومات الَّتي تُوفّرها حول خصائص البيئة، سواء كانت داخليَّة أم خارجيَّة ـ تعتمد كلّها على بِنْيَة الجهاز العصبيّ المركزيّ ـ تطوّرت تحت ضغطٍ انتقائيٍّ من البيئة. يستند الإنسان إلى المعلومات الَّتي يُزوّد بها ويفعل بناءً عليها، فلو كانت تلك المعلومات غير موثوقة لما بقي الإنسان. لذلك، يجب أن تُقدّم تقارير موثوقة عن خصائص الأشياء وظروف الحياة.

1- ذكرت تلك الأُطروحة في كتاب: C. J. Herriek, "Progressive Science, Vol. Evolution" 104 (1946), p. 469.

إذا تتبَّعنا تلك المُقدّمات نجد أنّها تفرض النتيجة ذاتها: الإنسان بوصفه كائنًا حيًّا، هو حلّ عمليٌّ لمشكلة التكيُّف. فبِنْيَته ووظائفه أوجه لذلك الحلّ، لقد تطوّرت تحت تأثير الحياة في البيئة، وكانت وسيلة لتنفيذ التعاملات الضّروريَّة مع الأشياء الَّتي يواجهها الإنسان. باختصار، الإنسان هو الكائن الَّذِي يعتمدُ على البيئة الكليَّة الَّتِي يعيش ويعمل فيها، وهو مشروط بها، ومرتبط بها بوثاقة.

لكن تلك النّتيجة تتناقضُ مباشرة مع مفهوم الإنسان الَّذِي ـ كما بيّنت ـ يكمن في أساس المدارس النَّقدِيَّة والتَّحليليَّة الحديثة. وبما أنَّ تلك النتيجة مُؤيّدة تمامًا من جميع الدِّراسات العلميَّة حول الإنسان، فإنّها تستحقُّ القبول بوصفها فرضيَّةً مُثبتةً بشكلٍ جيّد. وقبولها يُفنّد المبادئ المنهجيَّة للمثاليَّة النقدِيَّة والوضعيَّة المنطقيَّة؛ لأنّها تدحضُ مفهوم الإنسان الَّذِي يُشكّل فرضيّتهم المركزيَّة . مع أنّها لم تناقش في جدوى الكثير من تحليلاتهم التَّفصِيليَّة، وحتى في احتمال تقديم فرضيَّة أصحّ ـ أي مفهوم أشمل للإنسان ـ؛ ما سيسمح بانتشارٍ كبيرٍ وقيّم لتقنيّاتهم الخاصّة لتشمل مجالات في أَمسّ الحاجةِ إلى اختبارٍ قد يكون بنّاءً وحاسمًا. ومن المُمكن أن نتوقّع أنْ تعترف تلك المدارس بذلك التفنيد، وأن تقبل بتلك الفرضيَّة، وأن تُتابع ذلك العمل؛ لأنَّ أتباعها يضعون الثّقة في نتائج العلوم الاختباريَّة.

يمكن أن يُصاغ مسار حجّتي ضدّ المثاليَّة النّقديَّة والوضعيَّة المنطقيَّة باختصار. إنّ تلك النَّظَريَّات تفهم الإنسان على أنّه مُسْتقلٌ عن البيئة، وغير مشروط بها: تلك هي الفرضيَّة الضّمنيَّة المركزيَّة والضّروريَّة الَّتِي تنطوي عليها فلسفتهم. أمّا الفرع المنطقيّ لتلك الفرضيَّة الأوضح والمؤثّرة في أعمال تلك المدارس، فهو مفهوم التجربة المُتّصل به. لكن عندما حاولوا تطبيق التجريبيَّة الصّارمة تصوّروا أنّ التّجْربة مرجعيَّة مُطْلقة لا تسمح بوجود أيّ مرجعيَّة مشروعة وراء ذاتها. فالتجربة كما تحصل تكون ملزمة، لكن لا شيء من مُحْتوياتها الظّاهرة مندرج في ذلك الإلزام، ولازم ذلك أنّ التجربة بوصفها حدثًا ليس فيها إشارة مرجعيَّة ذات معنى، أو يمكن الوثوق فيها إلى الأشياء في البيئة الَّتِي تكشفُ عنها.

ذلك يعني أنّ التَّجربة بوصفها وسيلةً ليس لها ارتباط ضروريّ، أو ملائم مع مُتطلّبات البيئة، وشروط الحياة. لكن ذلك، كما بيّنت، فيه تناقض صارخ مع جميع النتائج العلميَّة الَّتِي توصَّلت إليها علوم عدّة، من علم الأعصاب إلى علم الحفريّات الَّتِي تهتمُّ بالبحث في الإنسان. لذا، فإنّ تلك المُعْتَقَدات تَتَعَارضُ مع الحقائق،

وقد تمّ دحضها بوصفها تفسيرات نظريَّة للإنسان، والأنشطة الإنسانيَّة؛ غير أنَّ أهمِّيَّة تلك الحُجَّة في أنّها تُؤثّر بشدَّةٍ على نُقطةٍ واحدةٍ، وهي: لو كان الإنسان النّوع من الكائنات الَّذي تُصوّره تلك الاعتقادات، لما كان قادرًا على التكيُّف والبقاء. فالبقاءُ الطَّبيعيُّ للإنسان يدحضُ المنطق المُتقن لتلك المدارس.

أخيرًا، يبقى سؤالٌ واحدٌ فقط يجبُ التّعامل معه بشكلٍ موجز، وهو: كيف استطاعت تلك المدارس بناء مبادئها النظريَّة الخطيرة والمُتقنة على أُسُس غير سليمةٍ من النَّاحية الواقعيَّة؟ الجواب الَّذي أودُّ اقتراحه يبدو في ظاهره مُشاكسًا: أعتقد أنّ تجريبيّتهم نفسها الَّتي تبنّوها بتلك الطّريقة قد أعمت أعينهم عن الحقائق؛ إذ من الواضح أنّ التجريبيَّة تفرض على المرء أنْ يبدأ من التّجربة. فإذا كانت تلك الرُّؤية التجريبيَّة ـ في الوقت نفسه ـ حادّة ومُلحّة بصورةٍ كافيةٍ، فإنّها قد ترفض بعد ذلك تجاوز التجربة. وأخيرًا، عندما تعلن تلك الرُّؤية أنَّ البدهيَّة الوحيدة هي التجربة، فهي تصرُّ على أنّه لا يوجد سبب منطقيّ وجيه للاعتقاد بفاعليَّة القدرات ـ الحسّ، العواطف، والفكر ـ الَّتي ينعكسُ عملها في التجربة. ومِنْ ثَمَّ، لا يوجد سبب لقبول الصِّدق الموضوعيّ للتقريرات الَّتي تُقدّمها تلك القُدرات بوصفها «معطيات» للتّجربة. وبسبب هوس تلك المدارس بالحضور المباشر للتجربة نراها تتردَّدُ في قبول أيِّ شيءٍ وسيط ومُستنبط. لذا، فهم يعتقدون منهجيًّا أنّ كلّ ما يستطيع عقل الإنسان إنتاجه ينحصر بـ «تركيب تجربته وتنظيمها»، كما في المثاليَّة التحليليَّة، أو أنّهم يختارون تعسُّفًا بعض تلك المُنتجات؛ لأنَّ لها مرجعيَّةً موضوعيَّةً محدودة، وأهمّيَّةً عمليَّةً، كما في الوضعيَّة المنطقيَّة. وبسبب افْتِتَان تلك المدارس ببداهة التجربة، فإنّها لم تُفكّر في أنْ تسأل من أين تأتي التجربة، وكيف تحدث، وما الوظائف الَّتي تُؤدّيها، وما الأهداف الَّتي يمكن أنْ تُحقّقها[1]؟

هناك وسيلةٌ أخيرةٌ لتوضيح الإسهام التّاريخيّ، والمغالطة النَّظريَّة لهاتين المدرستين، لا يسعني إلَّا أنْ أقترح المثيل التّاريخيّ. أعتقد أنّ ما يحدث في عمل الحركات النّقديَّة والتحليليَّة المعاصرة يشبه ـ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ ما حدث في عمل

1- يمكن صياغة تلك الفكرة بعباراتٍ عِدّة، من خلال الإشارة إلى المصدر الَّذي يستقي منه هؤلاء الفلاسفة وجهات نظرهم السَّائدة عن الإنسان والعالم. ذلك المصدر هو حصرًا علوم الفيزياء. كانت تلك المدارس معجبة جدًّا بعلماء الفيزياء، حيث شكّلت التجربة بالنسبة إليهم المعطيات الَّتي يحتاجونها،والمعرفة أصبحت النتائج الَّتي يتوصلون إليها. ذلك الافتتان بالفيزياء جعلهم يتجاهلون البيولوجيا.

الفلاسفة ما قبل السقراطيّين من طاليس إلى ليكيبوس. وهؤلاء مُتنوّعون للغاية في مذاهبهم الخاصَّة، لكن على الرّغم من تنوُّعهم، فإنَّهم جميعهم يشتركون بالاهتمام الشّديد في خصائص عالم الطَّبيعة وبِنْيَتِه. وذلك العالم كان واضحًا لهم لدرجة أنّ البحثَ في ماهِيَّته الظّاهرة لم يخطرْ لهم على بال. لقد فاتهم تمامًا التّمييز بين العالم كما هو في ذاته، والعالم كما تُقدِّمه التجربة.

باختصار، لقد غفلوا تمامًا عن مسألة ارتباط العالم بالإنسان. لكن المدارس المُناهضة للميتافيزيقا تراجعت عن ذلك الخطأ. وعلى الرّغم من كلّ الاختلاف الموجود بين أتباع تلك المدارس، فإنّهم يشتركون بالاهتمام الشَّديد في خصائص التجربة وبِنْيَتها، حيث يرون أنَّ التجربة من البدهيَّات الواضحات. لذا، لم يخطرْ لهم أنْ يسألوا عن مصدرها. ربّما نسوا أنَّ الواضح ليس من الضّروريّ ـ ولا حتى من المُمكن ـ أن يكون مُطلقًا. من هنا، فاتهم التمييز بين التجربة كما هي في ذاتها، والتجربة بوصفها وسيلةً للكائن البشريّ. كما أنّهم تجاهلوا بعض الحقائق ومنها: إنَّ الإنسان ليس فقط لديه تجربة؛ بل هو يستعملها، وأنّ تجربة الإنسان يجب أنْ تكون مُلائمةً لوظيفتها؛ وأنّ الإنسان يستعمل التجربة بوصفها وسيلةً للتكيُّف. باختصار، لقد تغاضوا تمامًا عن ارتباط الإنسان بالعالم.

أكّدت في بداية ذلك المقال صُعُوبة التَّحديد الدَّقيق للحركة الَّتي تشتمل عليها تلك المجموعات المُخْتلفة. وقد أتيت بذلك التشبيه التّاريخيّ لأقترح عنوانًا قد يُقلّل ـ إلى حدٍّ كبير ـ من تلك الصُّعوبة: إنّه يُبيّن قدرة تلك الحركة ومُحدّداتها، وهو يفيد في تِبْيان مكانتها في التَّطوُّر الكلّيّ للبحث الفلسفيّ. وأعتقد أنَّ المستقبل سيثبتُ أنَّ هاتين المدرستين: التّحليليَّة، والنَّقديَّة إذا نظرنا إليهما مُجْتمعتَيْن، يمكن أنْ يليقَ بهما اسم «ما قبل السّقراطيِّين الجُدُد».